ونضاله ينفي قول الرواية، فنحن نراه واضحا في عشقه وعواطفه، أما في «أشواقه الكبرى» فيضيع في ضباب الرواية. ويمكن أن نقول بشكل أدق: إن منطق إشكالية الرواية لا يسمح بإنتاج شخصية ترتبط بهموم الوطن بشكل عضوي وصحيح، لذلك كان من المنطقي أن تعامل الرواية قضية الوطن، كقضية اخلاقية ترتبط بالضمير والوازع الاخلاقي أكثر مما ترتبط بالفعل النضالي المباشر: «كان الهدف إرضاء العقل والضمير، وهذا ما فعلناه، وهذا ما نفذناه» (ص ٢٦٢).

عندما نحاكم رواية سحر فإننا نحاكمها من وجهة نظر علاقة الرواية بالتاريخ: إذ أن الرواية لا تكون جديرة باسمها، إلا عندما تحتضن في سطورها، ما هو جوهري في الحركة التاريخية، وترسم تناقض هذه الحركة ونزوعها الأساسي. أما عندما تضيع الكتابة الروائية في العارض، فإنها تزول كرواية وتنتهي إلى نافل الكتابة. أمر آخر، هو ما أدعوه بـ«النزعة النسوية» عند سحر، التي تحكم هذه الرواية، والتي ستطفو من جديد في روايتها الأخيرة: «عباد الشمس». فمما لا شك فيه، أن مسألة المرأة وتحريرها تحتل مكانا هاما في قضايانا الاجتماعية، لكن سؤال المرأة لا يجد معناه الحقيقي إلا إذا نظر إليه كعلاقة اجتماعية في جملة العلاقات الاجتماعية، وتحرر هذه العلاقة لا يمكن أن يتحقق إلا إذا تحررت كل العلاقات الاخرى. وأخيرا، فإن رواية: «لم نعد جواري لكم» لم تكن إلا بداية، سرعان ما تجاوزتها سحر خليفة باتجاه أعمال أكثر أهمية وأصالة.

الصبار: حدود الوعي وحركة الواقع

انتقلت سحر بعد الكتابة «الأولى» إلى كتابة جديدة، وفي الكتابة الجديدة تخلّت عن ما هو هامشي، وغاصت في المسألة الوطنية حتى وصلت إلى الجذور وقبضت على قلب المسألة، وفي جديدها قالت سحر أشياء كثيرة، وظهرت كأحد أهم الأصوات الروائية الفلسطينية، ومن أكثرها أصالة وصدقاً.

تقارب سحر، في روايتها الثانية «الصبار»، موضوعا معقداً، والتعقيد لا تبتكره الكاتبة لأنه قائم في الواقع الفلسطيني تحت الاحتلال، أو لنقل إن تعقد الموضوع يعود إلى جرأة الكاتبة وتعاملها مع مسألة بالغة الصعوبة. وإذا كانت الرواية تتعامل «عادة» مع بطل إشكالي يعيش فوق أرضه ويواجه عالما لا يسمح بتحققه، فإن رواية «الصبار» تتعامل مع «بطل إشكالي» متميّز، أو مع بطل ثنائي الإشكالية، يواجه شعبه ويواجه معه شروط الاحتلال الإسرائيلي، يحاول أن يواجه هذا الشعب ويتصالح معه في الوقت ذاته، كي يساهم في تحقيق ذاته وتحرير أرضه. انطلاقا من هذا، تصبح إشكالية «الانسان الفلسطيني» في رواية «الصبار» معقدة ومتعددة الأبعاد:

(أ) المواجهة بين الإنسان وواقع الاحتلال.

(ب) العلاقة بين الإنسان من حيث هو فرد مع الكل الاجتماعي، أو علاقة المصير الفردي مع المصير الجماعي في واقع الاحتلال.